

جهود محمد بن عبد الرحمان الديسي الإصلاحية من خلال مؤلفاته

أ. بن صالح محمد الصديق

جامعة محمد بوضياف / المسيلة - الجزائر -

ملخص:

اتسمت مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر بمحاربة هذا الأخير لكل ما من شأنه تنوير الشعب الجزائري وتعليمه، وتطويره فكريا وثقافيا، وبالرغم من هذه الأوضاع كان هناك رجال قاموا على رأب الصدع الذي أوجده الاستعمار، وحملوا لواء التعليم والإصلاح، فكان من هؤلاء الثلة العاملون المصلحون الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي الذي أوقف قلمه وفكره للإصلاح تنشئة الشباب الجزائري على العلم ومحبة لغته ودينه والتمسك بثوابت وطنه وهويته العربية الإسلامية، ولعل نتاجه الفكري من كتب ومصنفات بقي شاهدا على ما قدمه الديسي في حقبة الاستعمار الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، المؤلفات، عبد الرحمان الديسي، الاستعمار الفرنسي، الجهود.

مقدمة:

إن آثار الديسي هي مخطوطات ومؤلفات تنوعت بتنوع قراءاته ومطالعته كما تعددت موضوعاتها، وأشكالها، فمنها ما هو متون وشروح متون، ومنها ما هو جمع لمختارات أو نقد لمؤلفات وآراء غيره، وهي في طولها وقصرها منها ما بلغ عدد صفحاتها نحو الثلاثمائة ومنها ما لا يتجاوز الصفحتين أو الثلاث صفحات، وهي مؤلفات في الدين واللغة والأدب، وقد كان تركيزه على الدين واللغة أكثر؛ ففي اهتمامه بالدين أملت عليه ثقافته الدينية ثم عمله اليومي كمدرس لعلوم الدين في التوحيد والفقه والحديث، الكتابة في موضوعاتها تيسيرا لمسائل الفقه والتوحيد وشرحا لها وللأحاديث النبوية، أو نقد لمؤلفات وآراء حول قضايا الدين ومسائله.

أما اهتمامه باللغة والأدب شعرا ونثرا، فقد تجلّى في عنايته بالنحو قبل غيره لأن النحو أول فنون المعرفة أو بابها في اعتقاد الكثيرين، وفي اهتمامه باللغة نظما وشرحا نجد له امتداد في معظم مؤلفاته الدينية والصوفية والأدبية سواء في متونها أو شروحها حيث يعطي عناية خاصة للأساليب اللغوية، وقد اخترنا في هذا التصنيف البدء بالحديث عن مؤلفاته الدينية ثم تناولنا مؤلفاته الأدبية كما ذكرنا بعض رسائله بالتفصيل.

التعريف به:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد السنوسي بن محمد بن عبد الرحمان الديسي⁽¹⁾ وفي هدية العارفين للبغدادي جاء اسمه: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد الطيب بن عبد القادر بن أبي القاسم محمد بن سيدي إبراهيم الغول السلامي الجزائري⁽²⁾ يمتد نسبه إلى سيدي إبراهيم صاحب الضريح المشهور بمدينة بوسعادة، ولقب بالديسي نسبة إلى مسقط رأسه بقرية الديس -بلدية أولاد سيدي إبراهيم حاليا- التي تبعد عن مدينة بوسعادة بحوالي 12 كلم. والديس هي مركز بلدية أولاد سيدي إبراهيم الغول، وحسب ما هو مدون في نقابة الأشراف بمصروما ورد في كتاب "بحر الأنساب المحيط"، للشيخ حسين محمد الرفاعي فإن نسب سيدي إبراهيم الغول كالآتي: هو سيدي

إبراهيم الغول ابن إبراهيم السلامي أو البحري بن أحمد بن مسعود بن عثمان بن إسماعيل بن عبد الوهاب بن يوسف بن موسى بن عسى بن محمد بن يحيى بن موسى بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن محمد بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن سيدنا ومولانا الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولقب والده بالسلامي لقدمه من دار السلام ولقبه أهل الجزائر العاصمة بالبحري، وهو دفين الأميرالية في الجزائر العاصمة وقد تزوج بمریم بنت الضيف بن سليمان بن ربيعة التي أنجبت له سيدي إبراهيم الغول سنة 747هـ الموافق لـ 1346م.⁽³⁾

وقد قال القطب سيدي علي بن عمر صاحب زاوية طولقة إنما سعي سيدي إبراهيم الغول لأنه تغول في الولاية ووصفه سيدي الحاج الأغواطي بمخ الشرفاء في قصيدة قالها عند ضريحه لما أهمله أهل أبي سعادة ولم يكرموا مثواه، وشرفه من قبل أمه لا يختلف فيه اثنان لأنها بنت شريف أبي سعادة.⁽⁴⁾ ولد الديسي بقرية الديس سنة 1270هـ الموافق لـ 1854م حيث تربى في حجر والدته السيدة خديجة بنت محمد بن الخرشى، وعمته السيدة عائشة وجدته.⁽⁵⁾ وأدخلته والدته الكتاب ولما وصل إلى سورة المدثر وفي رواية أخرى سورة الجن أصيب بالجذري فكف بصره، والأرجح أن يكون ذلك في سن السادسة أو السابعة من عمره، وبقي مواظبا بالكتاب على القراءة سماعا حتى حفظ القرآن.⁽⁶⁾

وأول من ترجم له الكاتب السيد محمد بن الحاج محمد وهو تلميذ للديسي وعمه محمد بن أبي القاسم تولى رئاسة الزاوية بعد وفاة مؤسسها بفترة وتوفي قبل الديسي بسنوات. الذي يذكر أن الديسي تربى في حجر والدته وجدته يتيما حتى حفظ القرآن وأتقن أحكامه واشتغل بالتعلم فحفظ نحو الخمسين متنا منها متن الشيخ خليل.⁽⁷⁾ أما عن حياته العائلية، فقد تزوج في قريته ثم انتقل إلى زاوية الهامل مدرسا فتزوج امرأة ثانية من العائلة القاسمية، أنجبت له الأولى طفلا أسماه أحمد بن بوداود تبركا بأحد شيوخ الزاوية التي تعلم فيها (زاوية سيدي السعيد بن أبي داود)، وقد عاش بعد وفاة أبيه وكان احد كتّاب آثاره،

وأنجبت له الثانية طفلاً أيضاً أسماه محمد الصديق توفي في حياة والده، وعمره ثماني عشر سنة.⁽⁸⁾

كان الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي من أجلّ مشايخ العلم وبقية السلف الصالح، متخلّفاً بالأخلاق الراقية والأحوال فائقة علماً وعملاً وزهداً وورعاً ومحبة في الله ورسوله وأهله ووقوفاً مع الكتاب والسنة، يقول كل من عاشه ووزنه بالميزان الشرعي أن جزءاً من أحواله لا يخرج عن الشريعة الغراء.⁽⁹⁾ وقد كان أوحده زمانه وفريد عصره وأوانه وكان يحب الخمول ويكره المحمّدة والظهور، ليّن الجانب صبوراً غيوراً على الدين، صاحب حزم واجتهاد منذ خُلِق ما نطق بفحش، ولا ضبطنا عنه ساعة هو غافل فيها عن دينه، وكان يحفظ كل يوم مئة بيت.⁽¹⁰⁾

كما كان الديسي ميالاً إلى النهضة الأدبية الجديدة، وتجلّى الفكر النهضوي في أدب الديسي من خلال المواضيع الأدبية التي تناولها لاسيما الشعرية منها؛ إذ لم تكن مفرغة من محتوى الواقع بل كانت تعالج قضايا الأمة العربية والإسلامية بعمومها والشعب الجزائري بخصوصه؛ فشعره انعكاس للواقع الذي كانت تعيشه الأمة في تلك الفترة، أما عن أسلوبه فكان يحاول أن يتوثّب من خلاله إلى الأمام لكن ثقافته العربية الأصيلة ظلت تشدّه إليها وهذا ما ولّد عنده أدباً لا يكاد يخلو من نَفْسِ القدامى ونجد هذا في قصائده، كقصيدة قرية ديسنا والحميدية وقصيدة في وصف الزمان وأهله، وممّا أثار عنه أنه كان يحثّ طلبته على الجدّ والاجتهاد.⁽¹¹⁾

مؤلفاته الدينية:

1 - **توهين القول المتين:** لقد ألّف الديسي (توهين القول المتين) وهو كتاب يقع في 163 صفحة موجود عند أحفاده (الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي) كَرِدَ على كتاب (القول المتين) لصاحبه الشماخي الذي ركز على ادعائه في بطلان المذاهب الأربعة في الفقه الإسلامي وصحة المذهب الإباضي مذهب جابر بن زيد الأزدي الأنصاري (21-93هـ)، فقام الديسي بالرد عليه مناقشا آراءه وأقواله مبطلا مزاعمه مدافعا عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم، حيث يقول في المقدمة: "توهين القول المتين بما يشق على قلبه ويقطع منه الوتين، والقول المتين هذا رسالة لبعض إخواننا في الدين من الإباضيين يدعى قاسم بن سعيد الشماخي العامري وهو رسالة أفعمها مؤلفها بالقدح في الأئمة الأربعة ... وأطلق لسانه بما شاء بلا حياء ولا احتشام ... فأردنا التنبيه على ما ذكر حسب الإمكان وبقدر الزمان والمكان ليعلم أن ربحه قد لاقت اعصارا ... وليسمح لي بعض العلماء من اخواننا الاباضيين فيما يجر اليه البحث أو يقتضيه الحال من ذكر المذهب أو المسائل التي خاض فيها الشماخي في مقابلة الكلام بالكلام فإن المقام مقام إلزام وإفحام، وجدال وخصام وإثني عليم الله لم نقصد مس كرامتهم ولا جرح عواطفهم لأننا نعتقد أنهم إخواننا في الدين وإن اختلفنا نحن وهم في الاجتهاد".⁽¹²⁾ ولكي يُمكن الديسي القارئ من متابعة آراء الشماخي ورده عليها أثبت على هامش كتابه (توهين القول المتين) كتاب الشماخي المسعى (القول المتين) حيث جاء في كتاب الشماخي رفضه للمذاهب الأربعة، وعدم اعترافه بأئمتها، ولا يعتبر سوى مذهبه الإباضي هو المذهب الصحيح، ويذكر الشماخي حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه: "أخوف ما أخاف على أمتي من أئمة ضالين، مضلين قاعدين على أبواب جهنم ينادون إلها كل من أجابهم قذفوه فيها".⁽¹³⁾ وهو يقصد أئمة المذاهب الأربعة فيرى في مذهبه مذهب أهل الحق قائلا: "أن مذهب جابر بن زيد أسبق من المذاهب الأربعة التي ظهرت في القرن الثاني والثالث الهجري، وسعى وراء إثبات أولوية مذهبه بالإمامة وأسبقيته عن سواه من المذاهب الأخرى، لذلك جاء رد الديسي عليه في كتابه (توهين القول المتين)، ويبدو

أن الديسي جعل كلام الشماخي في هامش كتابه للتقليل من شأنه وتوهين رأيه لأنه في عادات العلماء أنهم يكتبون المسائل والمواضيع في المتن ويأتي شرحها والتعليق عليها والنقد في الهامش، إلا أن الديسي في هذا الموضوع يكون قد خالف المعتاد، وفي ذلك دلالة كبيرة ورسالة ضمنية إلى الشماخي أن ما جاء به هامشي وليس له من الواقع والصحة في شيء، فأراد بذلك أن يحط من آراء الشماخي، ومن خلال قراءتنا لمؤلف الديسي نستشف أمراً هاماً جداً هو أن الديسي تصدى لآراء الشماخي التي تطعن في مذاهب أهل السنة وتغذي الفُرقة بين الجزائريين وتضرب وحدتهم المذهبية في ظل وجود المستعمر الذي كان يغذي على هذه الفرقة ويدعم ويشجع نشر البدع والخرافات والخلافات التي تضرب عمق وصميم عقيدة الجزائريين الإسلامية، فلم يكن كتاب الديسي كما ذكرنا رداً على الشماخي فقط، بل هو تصحيح للفكر الديني، ودعوة منه لنبذ الخلاف بين المسلمين والدفاع عن الدين والأئمة بما فهم الإباضية وعلمائها التي أظهرت التقارب مع المالكية منذ القرون الأولى الهجرية، وتعايشت معها لذلك نجده يقول: "وليسمح لي بعض إخواننا في الدين من الإباضيين ... لأننا نعتقد أننا إخوانهم في الدين وإن اختلفنا نحن وهم في الاجتهاد"، وقوله بعض إخواننا في الدين فيه دلالة على وجود أمثال الشماخي الذين يدعون إلى التعصب والتطرف لمذهبهم حسب آرائهم الخاطئة التي تناولها (توهين القول المتين)، فهذا الصراع الفكري المذهبي كان سينخر جسم الأمة الإسلامية من قبل، وبعد أن أفل نجم دعاة التطرف والغلاة من المتعصبين في وقت كانت فيه الأمة الإسلامية في أوج قوتها، ظهر الشماخي يريد إحياء هذه النزعة التي لا تخدم الإسلام ولا المسلمين بصفة عامة ولا الجزائريين بصفة خاصة، ولا مذهبهم الإباضي في زمن كان يحتاج فيه الجزائريون ما يوحدهم ويجمع كلمتهم في جميع المجالات أكثر مما ينشر ويغذي التشتت والخلاف، أمام الخطر الواحد الذي تسلط عليهم وهو المستعمر الفرنسي الذي أراد منذ الوهلة الأولى من قدومه أن يطمس هوية وشخصية الشعب الجزائري، وأن يضرب عقيدته الإسلامية في صلبها،⁽¹⁴⁾ وفي قول الديسي "وإن اختلفنا نحن وهم في الاجتهاد" هذا الكلام له بعد عميق فبتحليل هذه العبارة نجد

أن الديسي أراد القول بجواز الاختلاف بين المسلمين ما لم يكن في العقيدة والأصول لأن أصل المذاهب واحد، وهو الكتاب والسنة أما الفروع فجائز ذلك بين العلماء، وهذا هو الاجتهاد، وقوله: "نحن وهم" أي أن الديسي لم يتهم ويلصق الخلاف في الاجتهاد بالاباضييين فقط، بل قد يكون الخلاف بين المذاهب الأخرى أيضا، ولعله بهذا أراد أن يتجنب مصطلح الخروج عن السنة والجماعة بذلك أراد تجنب إحياء الجراح التي أمت بالأمة الإسلامية منذ عصر الخلافة الراشدة، بذلك استطاع الديسي أن يصحح أخطاء الشماخي ويرد عليها، بتقديم الحج والأدلة من الكتاب والسنة ليدمج آراءه وأقواله التي أفعمها بالقدح في الأئمة الأربعة ومذاهبهم التي أخذت مبادئها من نصوص الكتاب الصريحة والسنة الصحيحة، واستنبطوا ما استنبطوه منها بما خصهم الله تعالى به من العقول الراجحة والبصائر النافذة، فالأئمة الأربعة ليس لهم قول خارج عن الكتاب والسنة والاجماع والقياس، ثم تحدث الديسي عن جابر فلم ينكر مكانته لكنه أنكر على المنتسبين إلى مذهبه التعصب له والرفض لغيره فيقول: "وليس جابر بأوثق ولا أعدل من غيره من سادات التابعين، ولا ننكر عليكم أخذكم عنه وتقليدكم له حيث ثبت عندكم عمله وبره وتقواه، بل موضع الإنكار والتعجب حصركم الحق فيه والمجددون للدين والمشيرون لأركانه إنما هم أهل السنة والجماعة بعلومهم ومعارفهم وشهامتهم منذ القرن الأول"،⁽¹⁵⁾ ويرى الديسي أن تفضيل جابر بن زيد عن سائر الأئمة ابتعاد عن الحق والإنصاف، بل يجب حسن الظن بالجميع لأنهم أئمة جابر وغيره، "وما أظن أن جابر يرضى بهذا التحامق لأنه عدل، ثقة، تقى، مجمع على عدالته ومن الورع كف اللسان عن الأعراض لاسيما عن سلف هذه الأمة".⁽¹⁶⁾

وهكذا يستمر الديسي مع الشماخي يأخذ عليه عدم التريث والتبصر والدقة ذاكرة أغلاطه ومجانبته التوفيق حيث غدا كلامه إدعاء، ويُعدا عن الحقيقة⁽¹⁷⁾، من هنا يتضح جليا البعد الفكري والإصلاحي في مؤلف محمد بن عبد الرحمن الديسي الذي أراد من خلاله محاربة التعصب المذهبي ونبذ الفرقة بين المسلمين الجزائريين داحظا كل أقوال وأفكار الشماخي بأدلة وبراهين شرعية وتاريخية.

2 - درة عقد الجيد: وهي قصيدة في التوحيد تقع في إثنتين وستين (62) بيتا يقول في مقدمتها:

وهذه أرجوزة وجيزة ***** نظمها في مدة وجيزة
سميتها درة عقد الجيد ***** في واجبات ربنا المجيد⁽¹⁸⁾

تناول فيها الديسي الواجبات لله تعالى كالوجود، البقاء، القدم، الوجدانية والمستحيلات في حقه تبارك وتعالى كالعدم، الفناء، الحداثة والتعدد كما تعرض لذكر الجائز في حقه وكذلك الواجب والمستحيل والجائز بحق الرسل، حيث نظمها منذ تلمذته بزاوية ابن أبي داود سنة (1293هـ) وهنا يظهر أن الديسي ما ان أكمل تلمذته حتى أصبح مؤهلا لتأليف ونظم المتون، وهذه ميزة لا يتصف بها كل المشايخ فالكثير منهم عندما يجازل للتدريس ينطلق مما أخذه عن أساتذته ومشائخه في تعليم الطلبة وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الخصوصية التي تميز بها الديسي خاصة أن الموضوع الذي ألف فيه منظومته درة عقد الجيد يتعلق بالتوحيد، وهو موضوع خاض فيه فطاحل علماء المسلمين بنظم المتون وشروح عديدة بحسب اختلاف مشاربهم، وقد بدا الديسي متأثرا بالقدامى مقتفيا طريقتهم في نظمه للمتون التي يشير الفهم والحفظ معا لطلبة العلم، وهذا في حد ذاته إبداع فكري ينم عن التوجه الخاص بالديسي المنطلق من نزعته الدينية الإصلاحية في مجتمعه.

3 - العقيدة الفريدة: وهي أبيات نظمها الديسي بعد (درة عقد الجيد) موضوعها في التوحيد تناولت مسائل عقائدية إيمانية تقع في خمسة وثلاثين (35) بيتا، وفي المقدمة ذكر ما يجب على كل مكلف ثم تحدث عن الواجب والجائز والمستحيل، وبحث في براهين الصفات ثم في الأخير ختمها بالسنة التي نظم فيها هذه المنظومة وهي سنة 1319هـ، ومما جاء فيها:

أول واجب على المكلف ***** معرفة وذا برأي الأعرف
أقسام حكم العقل لا تحال ***** الواجب الجائز والمحال
لثابت بالذات منتف كذا ***** وقابل الأمرين تلك تحتذا⁽¹⁹⁾

يمكن أن نستشف من أبيات هذه المنظومة أنها جاءت مكملة للقصيدة الأولى (درة عقد الجيد)، حيث تعلقت موضوعاتها بما يخص الله تعالى ثم الرسل، أما هذه الأخيرة كانت الهدف منها شرح ما يمليه الشرع على كل مكلف عاقل اتجاه الله تعالى والرسل، أو بعبارة أخرى أن القصيدتين جاءتا لكي توضحا وتشرحا علاقة المعبود بخالقه، ومن هنا يتضح أن ما أثاره الديسي في القصيدتين هو صلب العقيدة ولُغْمَا، فبمعرفة الله عز وجل حق معرفته، ثم معرفة الفرد لواجباته ودينه، فهذا يعني الإيمان الحقيقي والإسلام الصحيح الذي دعى إليه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد يقول قائل أن هذه المثنون كانت خاصة بطلبة العلم وليست للعامة، أو أنها كانت متداولة في الزوايا فقط، فنقول أن طلبة العلم -خاصة في مجال الدين- عندما يكون لهم تكوين صحيح وراسخ ونقي دون شوائب، فهؤلاء قد يكونون بدورهم دعاة وعلماء في مجتمعاتهم، فقد أثبت التاريخ أن الذين نشروا الإسلام الصحيح النقي الخالي من الفلسفات والبدع هم قلة جاءوا كفاتحين، وأصبح لهم أتباع في بلاد المغرب وهؤلاء هم من زادوا عن الإسلام، وربما هذا ما يفسر رفض سكان بلاد المغرب للمذاهب الإسلامية الأخرى وتبينهم وتمسكهم بالمذهب المالكي الذي جاء ناقلا للسنة النبوية الصحيحة.

4 - هدم المنار وكشف العوار: لقد ألف الديسي هذا الكتاب ردا على كتاب (منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف وموالمهم من الأطراف) لصاحبه عاشور بن محمد بن عبيد الذي خص به أشراف الهامل، وهم قوم ممن ينتهي نسبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث بالغ في مدحهم، فأذنب في حق نفسه وعقيدته من البداية حتى النهاية من قوله فيهم "رضي الله تعالى عن ولهم وتقهم، وعن ظالمهم وعصهم، وعن برهم وحرهم، وعن حيهم وبذهم"، (20) فيرى أن الاحسان لهم هو قمة أي احسان سواء أكان المحسن إليه منهم عاصيا ظلما أو غير ذلك، ويضيف بوجوب الطاعة للامحدودة لهم قائلا "عليكم بالمودة فيهم بأهل العالم الجني والإنسي، فلقد نصحت لكم بما نصحت به نفسي"، فمنذ البداية يبدو الكاتب خاشعا خاضعا متذللا متضرعا يزحف على الأعتاب، ويقبل الأقدام، يذكر أن الذي دفعه إلى تأليف

الكتاب هو شيخ الزاوية (الأول) محمد بن أبي القاسم "عرش التجلي وفرش التدلي، يعسوب الأمم، وصاحب خلعة الكرم، خليفة الله في جميع المراسم، فامتثلت أمره المطاع، على قدر المستطاع أنه بحسب شرف الممدوح يشرف المديح، ينتفع به كل من يحب الله ورسوله، وعترته الطاهرة محبة يرجوا بها شفاعتهم في الدنيا والآخرة"، وما دام دعاء إلى الإحسان والتودد والطاعة العمياء لهم فإن الإساءة إليهم في نظره ذنب كبير، وهم الذين فرض الله على الناس طاعتهم، كما فرض إعاشتهم على غيرهم "فمن المعلوم بالضرورة عند النساء والرجال أن الله فرض أرزاق الشرفاء والعلماء في بيت المال فإذا ضاع بيت المال باستيلاء الظالمين، فأرزاقهم في أموال المسلمين" وتستبدّ بالكاتب نزعتة، وتجنح به ميوله عن العقل مسافات أبعد فيقول أن الأشراف: "ذرات القبضة النورانية المقبوضة من نور ذاته، وقال لها كوني محمدا فكانت محمدا وبالضرورة أن السادة الشرفاء ذرات فائضة من تلك القبضة فردا فردا، عقلا وطبعاً عرفاً وشرعاً".⁽²¹⁾ فقد أباح الشيخ عاشور في كتابه للأشراف فعل المحرمات وارتكاب الآثام ذلك أنه طمأنهم بغفران الله لهم رغم عصيان بعضهم وخروجهم عن الدين، ومن هنا جاء رد الديسي في كتابه الذي سماه (هدم المنار وكشف العوار) الذي أراد من خلاله إبطال مزاعم عاشور التي لا تستند إلى دليل ديني أو تاريخي،⁽²²⁾ حيث قال الديسي في بداية كتابه: "قد وقعنا على ديوان مشحون بالكذب والهتان والظلم والإثم والعدوان، جمعه شيطان في صورة إنسان يدعى عاشور، من تأمل إفكه وشاهد حاله يقول إن باب التوفيق عنه مسدود، والخير عليه مجحود، حملة على جمعه خبث النفس والاحتتيال على اختلاس الدرهم والفلس، ودس فيه سموم أغراضه الفاسدة وترهات أباطيل مطامعه الكاسدة، مدعياً وزاعماً حب الشرفاء وهو في الحقيقة لهم من أضر الأعداء"،⁽²³⁾ ثم يقول على كتاب عاشور أنه اشتمل على "بدع شنيعة وانتحالات خرج فيها عن قواعد الشريعة كالقول بالإباحة التي هي عين الزندقة، ومفتريات عظيمة ودعاوي بطالة سقيمة، وتلفيقات حجج عقيمة، فأوجبنا نقده لإظهار زيفه، وتحذيراً مما جره على الأمة من ظلمه وحيفه"، فيقول الديسي "بضرورة القيام بإبطال كل بدعة تظهر".⁽²⁴⁾ ويقصد

هنا وجوب محاربة كل بدع التي لا تخدم الإسلام ولا المسلمين، فما جاء به الشيخ عاشور هو بدعة تقود الناس إلى الانسياق والتسليم الكلي للأشراف من آل البيت من دون الله، كما تضر بالأشراف أنفسهم وتقود ضعاف النفوس منهم إلى ارتكاب الآثام وهي دعوة إلى إباحة ما حرم الله، فسمى كتابه بـ "هدم المنار وكشف العوار في النصيحة للأشراف، وتحذيرهم من الاغترار بالسفساف وما تضمنه هذا الديوان من الظهور والإسراف المبني على غير الأساس"، ويقول: "أن الدين النصيحة، ومن نصيحته صلى الله عليه وسلم محبة أهل بيته، ومحبتهم تستلزم نصيحتهم والشفقة عليهم وارشادهم لسبل الإسلام فلا غمة في الدين ولا لبس، ولا محاباة ولا مDAHنة"، وخلص إلى أن الأشراف هم المطالبون أكثر بالتزام أوامر الشرع وعدم الاتكال على الأجداد وقال: "عن عاشور ما يلي: "وقد فتح هذا المبتدع على السادة الأشراف باب فتنة وفساد في هذا العصر العسير الذي تلاطمت فيه أمواج الفتن"، كما أن الديسي لم ينكر المكانة الحسنة للأشراف، لكنه لا يراها وقفا عليهم، كما أنه لا يفتي لهم بالاتكال على النسب، فتقديره لهم مرهون بعملهم والتزامهم حدود الشرع، كجميع المسلمين،⁽²⁵⁾ من هنا تتضح نظرة الديسي في تفسير وتحليل الوضع الخطير الذي كان سائدا في عصره الذي غلبت فيه الطرق الصوفية التي تجذرت أفكارها في عقول الجزائريين وسادت فيه الزعامات الروحية، وانقسم الجزائريون بين هذا وذاك، فمن إحدى هذه الزوايا الطرقية ألف الديسي كتابه (هدم المنار) الذي نقد فيه ديوان عاشور (منار الأشراف) الذي لم يتوقف عند إباحة المحرمات للعصاة من الأشراف، بل دعى إلى تقديسهم تقربا بهذه المحبة إلى الله عز وجل من هنا تظهر نزعة الفكر الإصلاحي للديسي، ومضيه قدما متحديا كل الفلسفات والاعتقادات الفاسدة التي تضر بالمعتقد والإيمان الصحيح، فأخرج الديسي كتابه ليقول فيه رأيه حسب ما يمليه عليه عمله وعقله وعقيدته ودينه في مناخ يغذيه الاستعمار بكل أشكال البدع والخرافات، التي من شأنها الضرر بعقيدة الجزائريين وهذا ما ذهب إليه فيما بعد الشيخ عبد الحميد بن باديس في محاربة الطريقة الفاسدة.

ومهما يكن فالكتاب أثار حفيظة الأشراف في تلك الناحية على الديسي، ولكنه لم يكن قطيعة تامة بينه وبين أبناء الزاوية الذين استاء بعضهم كما تسبب الكتاب في فرض نوع من العزلة عليه، وهذا ما ألمه، لكن أمام إرضاء ضميره في عدم كتمان كلمة الحق ونجاحه في كشف كذب عاشور هون عليه الألم، فإن أصابه ما يؤذيه من بعض الناقمين من الأشراف فقد نال رضى الله وأخلص لدينه.⁽²⁶⁾ فكسب من طلابه وغيرهم تقديرا أثلج صدره ونشر فكره الإصلاحي.

5 - سُلّم الوصول إلى الضروري من الأصول: هي منظومة في الفقه عدد أبياتها تسع وتسعون بيتا (99) بعدد أسماء الله الحسنى عرّف فيها الديسي أصول الفقه وتعرض إلى مسائل مختلفة في الموضوع كالشك واليقين والقياس والإجماع والنسخ...، ذاكرا في الأخير تاريخ النظم وعدد أبياته بقوله:

عام ثمان وثلاثمائة	*****	من بعد ألف قد مضت للهجرة
ينفع من قرأه بنية	*****	فإنها المفتاح للعطية
أبياته تسع وتسعون على	*****	عدد أسماء إلهنا علا ⁽²⁷⁾

ويرى الديسي أنه يجب على المتعلم أن يقرأها بنية وإخلاص وتمعن ليحصل له الفتح والاستفادة مما جاء فيها من مسائل فقهية، وتدخل هذه المنظومة في إطار تبسيط المفاهيم الفقهية لطلبة العلم آنذاك، وجاءت مبسطة واضحة في شكل أبيات ليسهل حفظها والتعليم بها.

6 - تحفة المحبين بشرح أبيات القطب الأكبر محي الدين بن عربي: هو شرح لأربع أبيات شعرية في أربع صفحات وأول الأبيات:

تظهر بماء الغيب إن كنت ذا سر	*****	والأ تيمم بالصعيد وبالصخرة ⁽²⁸⁾
------------------------------	-------	--

ويأخذ الديسي في الشرح على هذا النحو: "تطهر": أمر بتحصيل الطهارة والصيغة تعطي التكليف والتلمي إلى مزيد المكابدة ودوام المجاهدة، كتب هذا الشرح في 25 رمضان 1310م ويكمل شرحه بهذه الطريقة.⁽²⁹⁾

7 - تنوير الألباب بمعاني الشهاب: قام الديسي بشرح ثمانمائة وتسعين (890) حديثاً من جمع القاضي عبد الله بن محمد بن سلامة بن جعفر، وهو مؤلف بعنوان (معاني الشهاب) شرحه الديسي بمؤلف اسماءه (تنوير الألباب بمعاني الشهاب) شرحاً مختصراً لكنه أطلال في التسهيل والتقريب يجري من المتن مجرى الحاشية، لا مجرى الشرح لاختصاره واقتصاره على أيسر ضبط وأقرب فتح ويقول أنه شرحه سنة 1325هـ بزاوية الهامل ووقع تبيضه ثانياً بزيادات في بعض المواضع وتتمت بعض الأحاديث سنة 1327هـ⁽³⁰⁾.

وغيره تسهيل فهم الأحاديث النبوية الشريفة⁽³¹⁾، ونستشف من عنوان المؤلف (تنوير الألباب) المقصد الحقيقي من تأليفه الذي جاء لتنوير العقول في فضاء عم فيه الظلام وكأن الديسي يقول أن هذا الكتاب منارة تستمد ضوءها من مولدها الذي هو (معاني الشهاب) وكان دور الديسي هنا بلورة هذه المعاني في حلة جديدة وبفكر جديد يربط هذا بذلك.

هذه عينة من مؤلفات الديسي الدينية أوردناها وحاولنا أن نستنبط منها فكره ونزعته الإصلاحية، وهي قطرة من فيض فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نستوفي حقه، أو أن نحيط بكل تراثه الديني.

لنتطرق بعد هذا إلى عينة من مؤلفاته الأدبية محاولين إبراز الفكر الإصلاحي للديسي من خلال بعض هذه المؤلفات.

مؤلفاته الأدبية: انعكست ثقافة الديسي الدينية على كتاباته الأدبية، التي انقسمت بين نثر وشعر، ونلمس هذه الثقافة الدينية خاصة في الشعر الذي تظهر فيه المصطلحات القرآنية كما يجب أن نذكر أن كتاباته الدينية لم تخل من الأسلوب الأدبي الراقى لهذا سنحاول أن نستعرض بعض أدبياته ونستنبط منها أفكاره الإصلاحية.

1 - المناظرة بين العلم والجهل: ويلمها شرحها المسمى (بذل الكرامة لقراء المقامة)، ويتضح من عنوان هذا الكتاب مقصد الديسي، الذي أراد أن يعالج موضوعات مهمة، وهي حب العلم من جهة ومقت الجهل من جهة أخرى، ووضعية العالم والجاهل في الحياة

الاجتماعية، والركود الثقافي الذي كان سائدا في عصره، فهذه كانت محاور هذا المؤلف وقد اعتبرها البعض مناظرة جيدة حيث تظهر فيها وتشخصي ثمرات العلم ونتائج الجهل.⁽³²⁾ وتميزت هذه المناظرة بأسلوب الجدل والنقاش والحوار والسرد والنشاط العقلي، وقد وردت هذه المناظرة في ثلاث مراحل؛ تقديم ثم عرض الموضوع الذي هو الجدل بين العلم والجهل، ويذكر الديسي في المتن قوله: "فأجمع قوم وعينوا لذلك اليوم"، ويصور الديسي المشهد بحضور جمع الناس في يوم قد سبق الاتفاق عليه، وهذا يشبه إلى حد ما وكأنه اقتبس هذا المشهد من قصة سيدنا موسى عليه السلام وفرعون عندما تواعدا على يوم يشهده الناس، أو بعبارة أخرى في مناظرة بين الحق والباطل، حيث أعطى الديسي لكل طرف حقه في الدفاع عن نفسه ليتدخل في المرحلة الأخيرة الإنصاف ليحكم بين المتخاصمين قائلا: "دعا الشأن واتركا اللجاج، ولا تطيلا الحجاج... وقد اقتضت الإرادة الأزلية أن يكون العالم على هذا النظام جهلاء وأعلام".

وقد كان الدافع من هذه المناظرة فكريا الإشاعة حوار ثقافي، ونقاش يشغل فتيلة العقل وهولون من الأدب فيقول: "والأدب للعقول السليمة رياضة وأي رياضة"، فالمناظرة إذن قصد بها الديسي كما ذكر "إيقاظ العزائم وتحريك المهم"، وهي صالحة في نظره لأن تكون نموذجا يتدرب بها الطالب ويتذكر بها العالم المنتهي، ويذكر لسان العلم بها الطالب ويتذكر بها العالم المنتهي، ويذكر لسان العلم في المناظرة أمرا مهما كي لا يتخذ الجهل ذريعة للحط من قيمة العلم، وهو الكساد والخمول الذي أصاب الحياة الثقافية آنذاك، ويعلل لسان حال العلم ذلك بغلبة الفساد وسيطرة الجهلة والمنافقين، وهذا الكلام يبرز الإحساس الشديد بالركود الذي كان يطبع الحياة الثقافية، وغياب القيم الفكرية البعيدة عن الأغراض والأهواء، حيث أراد أن يقول: أنه لم يعد للعلماء والعلم الاحترام الذي كان موجودا من قبل، في حين كانت العلوم مزدهرة والعلماء محترمون عندما كانت الدول الإسلامية في أطوار عزها، وقد خفت تدريجيا تحت وطأة الاستعمار الذي تسبب في الانحطاط الثقافي فضعف شأن العلم والعلماء، ويظهر هذا في قوله: "فلتبك على سلفي

الصالح المنابر والأقلام والمحابر، أما الآن وقد كان ما كان وذهبت الجماعة واقتربت الساعة فلا يسعني إلا الرضا والصبر على مر القضاء والتقلب على جمر الفضا فالشيء ينتهي إذا بلغ غاية حده فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرا من عنده".⁽³³⁾

وعندما نتعرض لشعر الديسي نجد أنه كان أحد الشعراء الجزائريين الذي برزوا نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، وكان شعره يحمل شخصيته، وطابعه بالرغم من أنه تناول في شعره أهم الموضوعات الشعرية التي عرفها الشعر العربي على مر العصور، بما فيها شعر المنظومات ذات الغرض التعليمي، فتفنن في اللفظ ونوع الموضوعات، رغم اعترافه بأنه يعيش في زمان صار فيه "نظم الشعر كاسد السعرومن جعله حرفة ومكسبة كان للفقير والحرمان مجلبة"، فإنه بقي حريصا على نظم الشعر حتى آخر أيامه، وقد ضمّ شعره على اختلاف موضوعاته ديوانه منة الحنان المنان، الذي ضمّ كل أشعاره في مدح للرسول صلى الله عليه وسلم والدعاء ومديحه لغير الرسول، والتهاني والخوافيات والثناء والوصف وشعر الإجازات والتقاريط، وشعر الألغاز، والمنظومات التعليمية.⁽³⁴⁾

ومنها ما جاء في النحو والصرف، فقد اشتمل ديوانه على 164 بيتا تصدرت هذه المنظومات منظومته المسماة (الزهرة المقتطفة) في الجمل النحوية، والتي تناول فيها الجملة وأقسامها والجمل التي لا محل لها من الإعراب والجمل التي لها محل من الإعراب... الخ.⁽³⁵⁾، كما له نظم علامات الإعراب الفصول والفروع، والعديد من المنظومات الخاصة بالنحو والإعراب، التي كان لها إقبال كبير من طرف المهتمين بالتعليم والتعلم، وكان المقصد من نظم هذا الشعر لتسيير الحفظ، وتعليم اللغة العربية والمحافظة على مبادئ وقواعد لغة الضاد، في ظل سياسة التجهيل التي فرضها الاستعمار الفرنسي، وفرنسة الشعب الجزائري. وتبقى لهذه المنظومات قيمتها التاريخية، حيث تُعتبر إضافة كبيرة قدمها الديسي في فترة كان إنتاج الشيوخ ومن رجال الدين والزوايا في الشعر والنثر أشد ارتباطا بإنتاج القرون الوسطى، كما تبقى قيمتها في الدلالة على أن الديسي كانت له إمكانيات كبيرة، وثقافة دينية

ولغوية حرص على أن يفيد بها مجتمعه، واستخدمها حتى يعلوها صدى وحتى تكون فائدتها أعم.

2 - قصيدة في صفة الزمان وأهله: تظهر في نظم الديسي لقصائده نزعة الإصلاحية، وهي عديدة ومتنوعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مجموعة من الأبيات وهي متفرقات من قصائده نستدل بها عن رغبته وإدارته في إصلاح ما كان سائدا من وضع في عصره، حيث جاءت له قصيدة في صفة الزمان وأهله، وذكره شوقه للعلم وعدم وجود المساعدة لنوال ذلك من خلال الوضع المتردي حيث قال الديسي، في دباجة استهل بها هذه القصيدة "الحمد لله الذي شرف مقامات أهل العلم والأدب، وأنزل بمنه الحكمة على ألسنة العرب فهم من بين أجيال الأمم ينطقون بالعجب لاسيما في نظم الشعر وإنشاء الرسائل ونظم الخطب، وفضلهم بأن بحث منهم أكرم المرسلين، وأنزل عليهم بلغتهم أفضل الكتب...فإني لما قوى لطلب العلم اشتياقي واشتد بنار المحبة احترافي ولم أجد صديقا منجدا ولا رفيقا مسعدا، عملت قصيدة أطفأت بها الحريق ...".

وقد جاءت هذه القصيدة وكان عمره لا يتجاوز 29 سنة أي قبل التحاقه بالتدريس في زاوية الهامل حيث قال في مطلعها:

ذهب الصالحون لم يبق فضل	*****	وفشا في البلاد ظلم وجهل
قلت العلماء قبل وفي ذا الـ	*****	عصر بل هم من القليل الأقل
خلف القوم معشر قد أضاعوا	*****	سنة المصطفى أضلوا وضلوا
همج هامج رعا ع أطاعوا	*****	غهم في انتهاك مالا يحل
عظموا الأغنياء جهلا وذوا العـ	*****	م ضعيف لديهم مستقل ⁽³⁶⁾

إن هذه الأبيات تبرز وتعطينا المعطيات الحقيقية التي عايشها الديسي والمجتمع، في ظل الاستعمار الفرنسي الذي عمل جاهدا على تدمير هذا الشعب بالقضاء على مقوماته وتجبيله، بنشر الخرافات والبدع، وهذا ما حرك في الديسي الغيرة على أحوال الناس والتطلع إلى إصلاح الوضع وهي دعوة لطلب العلم يقوله:

قد جهلت ولو عقلت رشادا	*****	لم يكن لي سوى التعلم شغل
نعم ما حثت الركاب إليه	*****	وأجل الذي له شد رجل
لم أجد مسعدا خليا أريبا	*****	عز في دهرنا أريب وخل ⁽³⁷⁾
ويقول في قصيدة أخرى:		
شرف العلم ليس فيه مرأ	*****	حبذا العلم حبذا العلماء
لذة العلم عند ذي اللب علم	*****	حبذا الكنز حبذا الاقتناء
لذة العلم عند ذي الذوق فاقت	*****	كل ما يستلذه العقلاء ⁽³⁸⁾

أراد الديسي من هذه الأبيات أن يعطي المكانة الحقيقية للعلماء وطلبة العلم، وأن يمجّد مكانتهم ثم نجده يقول في موضع آخر: "إنه ينال بالمهم لا بالرّمم ويدرك بالاجتهاد والجد لا بالانتكال على الأدب والجد"، ومن ناحية أخرى فهو ينبذ الجهل والدعاة إليه قائلا: "وأنت يا جهل شناعة وأي شناعة وخسارة للحياة وإضاعة" ثم يقول عن الجهلاء: "بنوك بهائم وإن لبسوا العمائم"⁽³⁹⁾ ويقول أيضا: "وأعلم بأن عصابة الجهال بهائم في صور الرجال". وإن تمتعوا بفاخر الثياب وألوان الطعام وشراب وإن تشدقوا في الكلام"⁽⁴⁰⁾ التشدق بالكلام أي: التفصّح في الكلام والتوسع فيه، وهذه الصفة لا يمكن أن نجدها عند الأميين فهي صفة لمُتعلّمين ومُثقّفين، فكان الديسي يقصد الذين كانت لهم ثقافة خاصة لا تخدم المجتمع الجزائري، لقد حاولنا من خلال هذا الكلام أن نوضّح الأبعاد الفكرية التي جاءت في أشعار الديسي، أو كتاباته النثرية الأدبية التي تدعو إلى طلب العلم ومحاربة الجهل، وهي رسالة ضمنية لمحاربة سياسة الاستعمار التجهيلية، ودعوة صريحة إلى التشمير عن السواعد لبناء مجتمع مثقف بثقافة عربية دينية، فإنك إن تمكنت من إنجاز هذا فقد أعددت شعبا متكاملًا، وأنتجت رجالا يمكنهم الوقوف في وجه كل المحن التي تصب مجتمعاتهم، وهذا ما ذهب إليه الإصلاحيون فيما بعد، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله.

3 - تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل: لقد اهتم الديسي بكتابة التاريخ أيضا حيث ألف كتاب بعنوان (تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل) من أجل حفظ الذاكرة لفئة من

الشعب الجزائري في منطقته، وقال في مقدمته: "لا يخفى أن علم التاريخ علم جليل وموضوعه شريف نبيل... وورد في فضله ما يحث كل طالب على طلبه، ويحرض كل راغب على مطالعة كتبه... ويروى أن من أرخ مؤمنا كان كمن أحيا ميتا"، وتطرق الديسي في كتابه هذا إلى أسباب ضياع الأنساب: "ومما يجب أن يعلم أولا، أن غاية ما يعلم عن أحوال بلادنا وما قاربها من علم التاريخ أمور إجمالي يتلقاها الخلف عن السلف...، أما التقييد بالكتابة فقلما يوجد لما كان عليه حال البلاد قبل استيلاء فرنسا على القطر الجزائري من الاضطرابات وتغلب البعض بالتهب والسلب وشن الغارات، ولهذا السبب ضاع الكثير من أخبار علمائها وفضلاءها ورؤسائها فلم يحفظ إلا الشاذ النادر، إذ من المعلوم أن المعارف إنما يتسع نطاقها حيث وفور العمران واستتباب الراحة وتعاضد السكان، ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل إلا بالعمل والأمن على النفس والمال، قال بعض العلماء: ومن الأسباب التي تضيع بها الأنساب نسبة الشخص إلى البلاد التي يسكنها دون نسبته إلى أصله وقبيلته والفرنسي إذ نسب مثلا إلى الجزائر يقال الجزائري، فيغلب عليه ويتناسى انتسابه إلى قبيلته وأصله..."⁽⁴¹⁾

من خلال هذه المقدمة نستوحي سعة اطلاع الديسي على ما أُلّف في جانب قبل علم الاجتماع، ومؤلفات ابن خلدون، كما كان عالما بأحوال الجزائر حتى قبل الاستعمار لأنه يصفها بقوله: "الاضطرابات وتغلب البعض على البعض بالتهب والسلب وشن الغارات"، وهذا ما يؤكد المؤرخون سواء في الفترة العثمانية، أو حتى قبلها، ثم نجده يقول فالفرنسي إذا نسب مثلا إلى الجزائر يقال الجزائري، فيغلب عليه أي ذلك اللقب، وينسى انتسابه إلى أصله الحقيقي وهنا أراد الديسي أن يفرز الأشياء عن بعضها البعض، فقد خص بالذكر الفرنسي دون غيره لأنه الدخيل الجديد على هذا الوطن، وقوله استلاء فرنسا على القطر الجزائري، والاستيلاء هو أخذ الشيء بغير حق، فانتساب الفرنسي إلى الجزائر دون أصله لأنه ملكها بالقوة هذا الكلام إحياء إلى ما كانت تدعيه فرنسا، وهو أن الجزائر قطعة لا تتجزأ من فرنسا، فجاء تأليف هذا الكتاب من طرف الديسي لحفظ أصل قبيلة سيدي

نايل وهي من الأشراف تناول فيه التعريف سيدي نايل وثبوت شرفه وعصره ومستقره ونسله وأولاده .

إن هذا الكتاب يحافظ على وحدة هذه القبيلة، ويثبت لحمتها في وقت أصدرت فيه فرنسا قانون الحالة المدنية 1881م الذي يرمي إلى ضرب القبيلة ويشتت شملها،⁽⁴²⁾ وأيضاً نجد في مقدمة الكتاب دلائل واضحة للتحذير من الفرنسي الذي استولى على الأرض الجزائرية لينتسب إليها، أو بعبارة أخرى أن الفرنسي المقيم بالجزائر سوف يصبح جزائرياً ويأخذ مكانة الجزائري الحقيقي إذا نسي الشعب، ولم يحفظ نسبه وتخلي عن علم الأنساب الذي هو جزء من التاريخ، وهنا قد لعب الديسي في هذه المحاولة دوراً مهماً لحفظ الذاكرة، وتوعية الشعب الجزائري، وبعث رسائل مشفرة لا يفهمها المستعمر (استيلاء فرنسا)، يصبح الفرنسي جزائرياً....، وهي دعوة للمختصين والمتقنين طلبة العلم أن يتجهوا إلى خدمة هذا الاختصاص حفاظاً على أصول الشعب الجزائري، ومنع الدّوبان والانصهار في الحضارة الغربية ومجتمعاتها، وقد ذكر في خاتمة الكتاب تاريخ تأليفه وهو 15 جمادي الثاني 1331هـ الموافق لـ 1912م.

4 - الحميدية: كانت للديسي نظرة قومية إسلامية عبّر عنها في قصيدة كتبها بمناسبة خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908م، وسماها الحميدية وجاءت في (26 بيتاً)، فقد كان له وعي بقضايا الدين ذات الصلة بالسياسة، وكان متتبعا للحركة القومية العربية الإسلامية، ومن ثم جاءت قصيدته في عبد الحميد الثاني بكاء عن ضياع مركز هام من مراكز الإشعاع الإسلامي؛ ألا وهو الخلافة الإسلامية، وهي قصيدة ثناء بطعم الرثاء قائلاً:

*****	ثناء على عبد الحميد حميد
*****	وحزني عليه ما حيت جديد
*****	ووجدني به يحيا وشجون خالد
*****	ودمعي يحكي جعفر ويزيد

*****	فيا خالعه قد خلعتم بخلعه
*****	قلوب جميع المسلمين فبيدوا
*****	غدرتهم أمير المؤمنين وخنتهم
*****	عقابكم عند الإله شديد

ثم تواعد الذين خلعه بقلوبه:

وجاء في البيت العاشر من هذه القصيدة:

وكدتُم بهذا الخلع دين محمد ***** ومن كاد دين الله فهو مكيد

ثم وصف خالعيه (جماعة حزب الترقى) الذي لا يمت اسمه إلى مسماه بصلة قائلاً:

شمتُم بنا الأعداء بعصبة الخنا ***** فأنتُم لعمري سوقة وعبيد

تسميتُم حزب الترقى سفاهة ***** وضعكم للانحطاط يريد

وما اللفظ بالدستور إلا وسيلة ***** لباغ خراب المسلمين يريد⁽⁴³⁾

ثم خاطبهم بأن ما قاموا به من خلع للسلطان يضر بمصلحة العالم الإسلامي ككل فقال في البيت (19)

فهلا اقتديتُم بالأوربا التي ارتقت ***** فتعظيمها لمصالحها أكيد⁽⁴⁴⁾

أي أن هذا العمل الذي قاموا به لا يخدم الإسلام والمسلمين في شيء، بل هو في صالح أعداء الأمة الإسلامية أوربا والعالم الغربي. من فحو هذه القصيدة يتضح الاتجاه القومي الإسلامي للديسي، ونظرته الاستشرافية الثاقبة لخطورة ما حدث لعبد الحميد الثاني أثر هذه الفاجعة، وما سياترب عليها من ضياع الخلافة الإسلامية التي تعتبر مظلة العالم الإسلامي، حيث ثبت تاريخياً أن بعد سقوطها قُسم العالم العربي الإسلامي، واستعمرته أوربا في ما بينها، ولم تقم للخلافة الإسلامية بعد سقوطها قائمة الآن.

رسائله: تنوعت موضوعات رسائل الديسي بين رسالة شوق وإجابة عن طلب استفتاء (فتوى)، أو رسالة مدح وتفريط، أو رسالة وصف ومناقشة وتبادل أفكار، وسنختار بعضها من هذه الرسائل بما يخدم الموضوع وحسب ما توفر لدينا منها.

1 - أنفس درة في مسألة الهجرة: هي رسالة وردت على الديسي في شأن الهجرة فيقول: "قد ورد علي سؤال من بعض العلماء وخلص الأصفياء فأكبرت السائل وقلت أتى ترد لمثلي المسائل على أن مسألة الهجرة مسألة مشكلة بل عويصة معضلة تضاربت فيها الأقوال،

وتصدي للبحث عنها فحول الرجال، ... لكن لما كان لسؤالهم حق الإجابة أجبناهم بهذه العجالة، ... والأعمال بالنيات والله أعلم بالطويات، وسميتها رشحة بقطرة في ما يتعلق بالهجرة، وإن لاقى وراقت فلکم أن تسموها أنفس درة في مسألة الهجرة، ... عمدتنا في التحقيق في أمرها وعدم وجوبها حديث صحيح يستنشق منه أرح الفرج بالتوسعة في أمر الهجرة، فإن دين الله يسرا فلننقله بسنده ومنتنه...⁽⁴⁵⁾ لقد نال موضوع الهجرة اهتمام العلماء لا سيما علماء الجزائر الذين اشتغلوا بها اشتغالا بالغا منذ أن تدنست أرضهم بالاستعمار، فكانت آراؤهم مختلفة في شأن البقاء تحت سلطة الاستعمار، والعيش بأرضهم مع الحفاظ على دينهم أو الفرار بدينهم والاستقرار بأرض يحكمها سلطان الإسلام، وقد جاءت هذه الرسالة التي كتبها الديسي سنة 1331هـ الموافق لـ 1913م، وبعد مرور أكثر من ثمانين سنة (80 سنة) من الاحتلال وهذا يؤكد اهتمام الجزائريين بموضوع الهجرة خاصة الطبقة المثقفة، ويعود السبب في ذلك تغلب الكافر على أرض الإسلام، ومنها ما يرجع إلى المعاناة التي كان يعيشها الشعب على مختلف المستويات، ويمكن أن نرجع سبب انشغال الناس بالهجرة ورسالة الديسي هذه إلى مشروع التجنيد الإجباري سنة 1912م، الذي فرضه الاستعمار على أبناء الشعب الجزائري لخوض معارك وأحوال الحرب العالمية الأولى، ولم يذكر الديسي هذا تصريحاً مباشراً وإنما ضمنه في قوله: على أن مسألة الهجرة مسألة مشكلة بل عويصة معضلة كما أن قرائن الحال والوقائع والأحداث في تلك الفترة كانت تغني السائل وكذا المفتي عن إيراد ظروف هذه النازلة التي ترتب عليها الهجرة، وقد جاء رأي الديسي بعدم جوازها بما يخدم الجزائريين ووطنهم، لأن الواقع أثبت أن البقاء لمن بقوا متمسكين بدينهم وفي أرضهم، وأن أغلب من هاجر إما أنه عاد أدراجه فيما بعد، أو أنه خرج طالباً للعلم وعاد لينشر ذلك بين أبناء وطنه، ومنهم من ذاب في مجتمعات إسلامية فنفع غيره من المسلمين أو هاجر لغير بلاد المسلمين فذاب في مجتمعاتهم، وقوله: وإن لاقى وراقت فلکم أن تسموها أنفس درة في مسألة الهجرة، هذا الكلام له بعد عميق جداً وإن لاقى وراقت، كان الديسي يعلم أنه سيخالف الكثيرين في رأيهم في مسألة الهجرة، أو بعبارة

أخرى أن هذه الفتوى اعتبرها فتوى جديدة وفق ما اقتضاه الحال ورآه مناسباً، أما أنفس درة وهو يقينه أن هذه الفتوى وهذا الرأي الذي خلص إليه بالغ الأهمية، وأنه سوف يعود بالفائدة على الشعب الجزائري، أو ما يدرأه من خطر خلو الساحة للمستعمر، كما أن الهجرة كانت وجهاً من أوجه المقاومة إلا أنها مقاومة سلبية لا تخدم الوطن، أما قوله: ورد علي سؤال من بعض العلماء وخلاص الأصفياء، هذا يدل على مكانة الديسي بين علماء عصره وقيمة رأيه لدى هؤلاء العلماء، فكان خطابه موجهاً لنخبة المجتمع الجزائري، ليتم تبليغها لعامة الناس، وهنا يظهر البعد الإصلاحي والوطني للديسي من خلال هذه الفتوى.

2 - تحرير القصد في حكم الفصد: وهي رسالة يقول فيها: "...ورد علينا سؤال من بعض الإخوان مضمونه، ما حكم الله في تلقيح الجذري المعروف في العرف الآن بالفصادة... فأقول في الجواب... أن الفصد من باب التداوي والتطبيب المجمع على إباحته وقد يحب ويندب بحسب العوارض المقتضية..."⁽⁴⁶⁾ هذه المخطوطة لم نعثر على تحقيق لها، وهي مخطوطة مكتوبة بخط مغربي رفيع، فقد جاء في صفحاتها إباحة الديسي وتجويزه التلقيح، مستنداً في رأيه إلى آيات وأحاديث صحيحة.

وقد تعرض إليها عمر بن قينة في كتاب الديسي حياته وآثاره وأدبه بقوله: "رسالة تقع في ثلاث صفحات كتبها الديسي إجابة عن سؤال يستفتي صاحبه الديسي في التلقيح، أهو حلال أو حرام؟ فكانت إجابة الديسي بجواز التلقيح وعدم تحريره"⁽⁴⁷⁾، وأول ما يمكن أن نستنتجه منها هو حرص الشعب على الدين ومعرفة الحلال والحرام بعد 90 سنة من الاستعمار لأنها جاءت حوالي 1920م، أو بعبارة أخرى أن الاستعمار الفرنسي لم يستطع محو عقيدة الإسلام ومبادئه من نفوس الجزائريين، ولم ينجح مشروعه التنصيري، لذلك كان الجزائري حريصاً على معرفة الحلال والحرام، كما كانت من ناحية أخرى تثبت مقاطعة ورفض الجزائريين لكل ما يأتي من طرف الاستعمار ولو كان خيراً، ومن هنا تظهر بصمة الديسي في توعية المجتمع منطلقاً من تخصصه كعالم دين، فكان يؤدي مهمته من منبر اعتلاه بشهادة علماء عصره، إذ كان نعم المصلح ونعم الرجل في المنطقة، ولعلّ موقفه هذا

قد انقذ به العديد من الأرواح التي كانت مآلها الموت بسبب الأمراض، وفتواه هذه تكشف أيضا سعة اطلاعه بالعلوم الحديثة آنذاك، فكان الديسي عالما موسوعة متفتحا ولم يكن يرفض الحضارة الحديثة والتجديد والتطلع إلى كل ما يخدم الإنسانية، متمسكا بالأصالة ولا يرفض التطور والعلوم الحديثة.

3- رسائله مع الشيخ الحفناوي: كان له رسالتين أجاب فيهما الشيخ الحفناوي تضمنت الأولى قوله: "إنكم سألتُموني عن وفيات بعض مشاهير ناحيتنا ..."،⁽⁴⁸⁾ فأجابه عن مشاهير المنطقة والناحية ككل وتصنيفاتهم وتواريخ وفاتهم، فساهم بذلك في مساعدة الشيخ الحفناوي في تأليفه لكتاب "تعريف الخلف برجال السلف"، أما الثانية هي فتوى في جواز كشف المرأة الغير مخشية الفتنة لوجهها وكفها، وجواز الخروج في حوائجها طرقي النهار ويجوز لها البيع والشراء والإجازة لضرورتها، إن لم تجد كافيا لأنهن شقائق الرجال، وقدم أدلة على ذلك من الشرع ومن هذه الفتوى يتضح جليا البعد الفكري الإصلاحي للديسي، حيث أعطى للمرأة حقوقها التي كفلها الشرع، وقوله لأنهن شقائق الرجال من هذا الكلام يتضح أنه سوى بين الجنسين في المسؤولية والحقوق، خاصة إن لم تجد هذه المرأة من يكفها عن القيام بشؤونها، لذلك أشركها في بناء المجتمع، وهذا الكلام جاء في بداية القرن 20 ميلادي، وهو يدحض كل من يصف علماءنا بالإجحاف في حق النساء، وهذه الفتوى تكشف التفتح الحضاري الذي يحكمه الشرع وهو من مبادئ الديسي آنذاك.

4- رسائله مع الشيخ عبد الحميد بن باديس: كان للديسي علاقة طيبة ووطيدة بالشيخ عبد الحميد ابن باديس حيث مدحه في قصيدة من إحدى عشر بيتا (11) تُظهر حقيقة العلاقة التي كانت تربط الشيخين واستمهلها بقوله:

إلى عبد الحميد مزيد شوقي ***** فريد العصر بنبراس الزمان

كريم الأصل موفور المزايا ***** أنيل المجد من قوم هجان

وختمها بقوله:⁽⁴⁹⁾

فيا رب أبقه مرفوع قدر ***** وقه شر حاسد وشان

ووالده وأخوه وصنهم ***** بسر القطب والسبع المثاني
ووقفنا لما يرضك وأختم ***** لنا بخير مع حفظ الإيمان

فقلوه إلى عبد الحميد مزيد شوقي هذا يثبت المودة التي كانت متبادلة بينهما، كما تثبت معرفة كل طرف بالآخر معرفة جيدة، وما يؤكد هذا الكلام هي الرسالة التي أجاب فيها الديسي عبد الحميد ابن باديس عن سؤاله في جواز الشهادة بما يسمع من الهاتف (التلفون)، فأفتى له الديسي بجواز ذلك مستدلاً بقوله: "ومن المقرر أن طرق العلم الحواس الخمس ومنها السمع ... ومما يزيد ما تقدم من الاعتماد على معرفة الصوت الأحاديث المروية عن الزوجات الطاهرات أمهات المؤمنين ... من وراء حجاب ... فعلى هذا تساوى باب الرواية باب الشهادة في التحويل على معرفة الصوت، والتلفون قد صحت التجربة المتكررة معرفة الصوت منه بحيث لا يشك السامع أنه صوت فلان بن فلان..." (50)

إن هذه الرسالة لا تبرز حجم العلاقة بين الديسي وابن باديس فقط، بل هي شهادة من عبد الحميد بن باديس على الكفاءة العلمية للشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، وتؤكد في نفس الوقت مكانة الديسي لدى ابن باديس، التي جاءت في 15 شوال 1339هـ أي قبل وفاة الديسي بحوالي شهرين 22 ذي الحجة 1339هـ الموافق لـ 1921م. هذا يثبت أن الديسي كان رجل إصلاح، وعلى توافق كبير مع ابن باديس، بل إن هذه الرسالة وهذه الفتوى دليل على أن الرجلين كانا يسيران في نهج واحد ألا وهو الإصلاح.

الخاتمة:

من خلال استعراضنا لأهم ما ألفه الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي لاحظنا أن ما أنتجه من مؤلفات خلال حياته كان ينم عن قدرة فذة في الرواية والدراسة، فالرجل اتسم بالتورع في علوم اللغة والدين وعلم الكلام وعلم الأنساب، كما كان له باع في الشعر والأدب، وكل هذا يجعل منه من أعلام تلك الفترة، باعتبار الظروف التاريخية والثقافية والاجتماعية، وكذا حالة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي الذي كان ضريرا، ومن جملة ما يُحصَل من وراء هذا المقال ما يلي:

- تنوع مؤلفات الشيخ.
- وعيه بمجريات الأحداث التاريخية والاجتماعية والسياسية وتجسيده لهذا الوعي من خلال الإجابة على الأسئلة الفقهية، وتعامله معها ضمن دائرة فقه الواقع وفقه الأولويات كالهجرة وغيرها من مستجدات ذلك العصر.
- تضمينه للأحداث السياسية والفكرية حتى من خارج الوطن كما هو حاله في القصيدة الحميدية.
- تكوينه الفكري والديني واللغوي جعله يخوض في علوم شتى.
- تأليفه في علم الأنساب كان بمثابة دراسة إثنوغرافية كما هو متعارف عليه اليوم من خلال مؤلفه "تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل".

الهوامش:

- (1) ابن عبد الرحمن الحاج بن السنوسي: ترجمة للشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان الديسي، مخطوط لدى المدني بن عبد الرحمان الديسي، ص 02.
- (2) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، ج2، دار إحياء التراث العربي، د ط، بيروت لبنان 1955، ص 339.
- (3) محمد بن عبد الرحمان الديسي: تحفة الأفاضل في نسب سيدي نابل، تحقيق: عبد الكريم قذيفة، الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، ط1، الجزائر، 2012، ص 13.
- (4) أبي القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، 1982م ص ص 22-23.
- (5) نفسه، ص 407.
- (6) عمر بن قينة: الديسي حياته وأثاره وأدبه، الشركة الوطنية للنشر، د ط، الجزائر، 1977، ص 16.
- (7) محمد بن الحاج محمد: الزهر الباسم، المطبعة التونسية، د ط، 1308 هـ، ص 145.
- (8) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص 25.
- (9) محمد بن يوسف الكافي التونسي: إيقاظ الوسنان الفاتح المنظمة التوحيد لابن عبد الرحمان، مطبعة الترقى دمشق، ط1 1342هـ/ 1954م، ص 112.
- (10) محمد بن الحاج محمد: المصدر السابق، ص 145.
- (11) ابن عبد الرحمن الحاج بن السنوسي: المصدر السابق، ص 02.
- (12) محمد بن عبد الرحمن الديسي: توهين القول المتين، مخطوط لدى جمعية الشيخ عبد الرحمان الديسي، ص ص 2-3.
- (13) نفسه، ص 30.
- (14) نفسه، ص ص 2-3.
- (15) نفسه، ص 30.
- (16) نفسه، ص 31.
- (17) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص ص 67-68.
- (18) محمد بن عبد الرحمن الديسي: ديوان منة الحنان المنان، الجمعية الثقافية للعلامة محمد بن عبد الرحمن الديسي، ط1، الجزائر 2009، ص 07.
- (19) نفسه، ص 10.
- (20) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص ص 50.
- (21) نفسه، ص ص 51-52.

- (22) نفسه، ص ص 52-53.
- (23) محمد بن عبد الرحمن الديسي: هدم المنار وكشف العوار، مخطوط لدى الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي ص 01.
- (24) نفسه، ص 03.
- (25) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص ص 54-55.
- (26) نفسه، ص 59.
- (27) ابن عبد الرحمن الديسي: شرح علم الأصول إلى الضروري من الأصول، مخطوط لدى حفيده باديس الورق، ص 43.
- (28) محمد بن عبد الرحمن الديسي: تحفة المحبين لشرح أبيات القطب الأكبر معي الدين، مخطوط لدى الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، ص 01.
- (29) نفسه، ص 04.
- (30) محمد بن عبد الرحمن الديسي: مخطوط بزاوية الهامل، ص 01.
- (31) عمر بن قينة: المرجع لسابق، ص 78.
- (32) نفسه، ص 193.
- (33) محمد بن عبد الرحمن الديسي: المناظرة بين العلم والجهل، وبذل الكرامة لقراءة المقامة مراجعة تقديم عبد الكريم قذيفة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، ط 1، الجزائر، 2012، ص 90.
- (34) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص ص 87-88.
- (35) محمد بن عبد الرحمن الديسي: ديوان منة الحنان المنان، ص 09.
- (36) نفسه، ص 209.
- (37) نفسه، ص 210.
- (38) نفسه، ص 173.
- (39) محمد بن عبد الرحمن الديسي: المصدر السابق، ص ص 48-49.
- (40) نفسه، ص 50.
- (41) محمد بن عبد الرحمن الديسي: تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل، المصدر السابق، ص ص 29-31.
- (42) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، ج 1، دائر البصائر، ط 6، الجزائر، 2009، ص 456.
- (43) محمد بن عبد الله الديسي: ديوان منة الحنان المنان، المصدر السابق، ص ص 205-206.
- (44) نفسه، ص 206.
- (45) محمد بن عبد الرحمن الديسي: مخطوط في شأن الهجرة، ص ص 17-23.

-
- (46) محمد عبد الرحمن الديسي: تحرير القصد في حكم القصد مخطوطة لدى الجمعية الثقافية للشيخ الديسي في الدين ص ص 2-5.
- (47) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص 71.
- (48) أبي القاسم محمد الحفناوي: المصدر السابق، ص 411.
- (49) محمد بن عبد الرحمان الديسي: ديوان منة الحنان المنان، المصدر السابق، ص 162.
- (50) عمر بن قينة: المرجع السابق، ص ص 315-316.